البحث السابع عشر

سليمان ومنسأته

وتسخير الريح والجن له وإلقاء جسد على كرسيه

ما قاله المفسرون في ذلك وبيان ضعفه

قال تعالى في سورة سبأ: (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور، فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين)، وقال تعالى أيضا في سورة (ص): (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب).

قال المفسرون في معنى قوله (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) أي سخرنا لسليمان الريح كله. وقيل ريح خاصة فكانت معه كالمملوك المختص بالمالك يأمرها بما يريد ويسير عليها حيثما أرد وكان جريها بالغداة مسير شهر وجريها بالغشي كذلك. وقالوا في معنى (وأسلنا له عين القطر) أي النحاس المذاب وقيل الحديد وكان ينبع له ذلك من عين في الأرض كما ينبع الماء. وقيل معنى اسلنا أي أذبناه له بغير واسطة كما ألنا له الحديد بغير واسطة ولم يلن ولا ذاب لأحد قبله.

وقالوا في معنى (ومن الجن من يعمل بين يديه إلخ..) أي أن بعض الجن كان يعمل بين يديه أي بأمره ما يشاء(من محاريب) أي قصور وأبنية شامخة (وتماثيل) أي صور حيوانات من نحاس وغيره. قيل أنه عملوا له أسدين من أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما. وقيل المراد من التماثيل صور الأنبياء والملائكة والصالحين فكانت تعمل في المساجد من نحاس وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا الله كما كان يعبده هؤلاء وقيل المراد من التماثيل الطلسمات فكانت تعمل تمثالا للتمساح أو للذباب أو للبعوض فلا يتجاوزه الممثل به ما دام في ذلك المكان. ومعنى (جفان كالجواب) أي يعملون قصاعا للطعام كبيرة واسعة كالجواب أي كحيضان الماء (وقدور راسيات) أي قدور للطبخ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها، هذا ما كان يعمله الجن لسليمان وكان من يزغ منهم عن أمره يذق عذاب السعير ولذلك أمر الله داود وأمر آله أن يكونوا شاكرين لله تعالى على ما أولاهم من هذه النعم.

وقالوا في معنى قوله تعالى (فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) أي لما حكمنا على سليمان بالموت كان واقفا لعبادة الله متكأ على منسأته أي عصاه وقد بقي واقفا متكأ عليها وهو ميت شهورا لا يعلم بموته أحد حتى قيض الله له دابة الأرض أي الأرضة وهي سوسة الخشب فمكثت تأكل منسأته حتى ضعفت عن حمله فانكسرت فخر على الأرض فلما خر تبينت الجن أنهم لو كانوا يعلمون بموته من حينه لما لبثوا بعده حولا في الأعمال الشاقة إلى أن خر على الأرض.

وأما قوله (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) فقد ذكر المفسرون في معناها أقوالا كثيرة وقرروا بأن كثيرا منها خرافي غير لائق ثم قالوا وأصحها أقوال أربعة قد ذكرها المحققون (أولا) أنه ولد لسليمان ولد فقالت الشياطين إن عاش صار مسلطا علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان ذلك فصار يربيه في السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته إذ ألقى ذلك الولد ميتا على كرسيه فتنبه إلى خطيته في أنه لو يتوكل على الله فاستغفر ربه وأناب، (ثانيها) أن سليمان قال (لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس مجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل إلا واحدة وجاءت بشق رجل فجئ

به على كرسيه فوضع في حجره (ثالثها) أن سليمان مرض مرضا شديدا فكان يلقى على كرسيه كأنه جسد لا روح فيه من شدة المرض (رابعها) أنه ابتلى بخوف وتوقع بلاء في بعض الجهات وصارت بسبب ذلك كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي ثم أن الله أزال عنه هذا البلاء والخوف وأعاده لما كان عليه أولا من القوة والسيطرة. هذا محصل ما قاله المفسرون في هذه الآيات.

ما أفهمه في ذلك وأدلتي عليه

أقول: يحتمل أن يكون معنى قوله تعالى (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) أي أننا كما آتينا داود القوى المادية التي هي كالجبال وكالحديد بواسطة انضمام عظماء القوم معه وغلبتهم وقهرهم لجالوت وقومه تلك القوة الحديدية التي أسس بها سلطانا عظيما لبني إسرائيل كذلك أعطينا ابنه وخلفه سليمان الريح أي القوة الروحية قوة العلم وتنظيم الملك وتشييده وترتيبه حتى أصبحت هذه المملكة بواسطة سليمان تتقدم في طريق العظمة وتنمو بسرعة في العلو كسرعة الريح أي أنها كانت تتقدم في غداة أو روحة كما كانت تتقدم غيرها في شهر كالريح التي غدوها شهر ورواحها شهر لأنه أوتي ملكا لا ينبغي لأحد من بعده.

أو المراد من تسخير الريح لسليمان استخدامه لها في النقليات كما هو حاصل الآن من استخدام الطائرات الهوائية فيكون المعنى أن الله تعالى قد علم سليمان علم الطيران كما علمه لأهل هذا الزمان وكان غدوها شهر أي سفرها في غداة كسفر غيرها من دواب الأرض في شهر ورواحها كذلك.

(وأرسلنا له عين القطر) بأنه علمناه تذويب النحاس بالنار أو سهلنا له كل صعب في الوصول إلى عين الحق أو علمناه الحقيقة. (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه) الجن يطلق على كل ما جن واختفى عنك ولو من الناس ولو اختفاء معنويا. والمراد من الجن هنا الشياطين المذكورة في سورة (ص) في قوله تعالى (والشياطين كل بناء وغواص) والمراد بهم أناس مخصوصون أقوياء أشداء مفكرون مدبرون يمكنهم أن يعملوا أعمالا عظيمة دقيقة تخفي على غيرهم كأنها من أعمال الجن. فهؤلاء كانوا يعملون بين يديه بإذن ربه في تشييد ملكه وتنظيم أمره وفي تعضيضه وخدمته (ومن يزغ منهم عن أمرنا) الذي أنزلناه عليه بإصلاح شأن الناس وأمرناهم بإتباعه (نذقه من عذاب السعير).

(يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب) أي أن هؤلاء القوم العظماء والأقوياء المفكرون يعملون له من محاريب المقامات الشريفة وتماثيل الأعمال العظيمة وجفان الأرزاق المعنوية والأغذية الروحية الواسعة كالجوابي أي الحياض الواسعة فكانوا يهيئون لتقدم مملكته ورقيها ظروفا واسعة كالحياض التي تأتي إليها المياه من كل جانب وكانوا يهيئون له قدورا راسيات أي قواعد ثابتات ومبادئ وتعليمات وتأسيسات ثابتة يتمشون عليها وينقلون عنها ويغترفون منها كما يغترف من القدور فهو تشبيه ومحاكاة لأمور المعنوية بالأمور الحسية وإيداع للحقائق في الأمثلة الصورية والهيئات الجزئية. ولذلك قال تعالى (اعملوا آل داود شكرا) أي بما سخرنا لكم وأفضنا عليكم من نعم الملك والعظمة والكمال والفضل والمال ولكن (قليل من عبادي الشكور) ولذلك حل ببني إسرائيل ما حل بغيرهم ممن لم يشكوا نعم الله تعالى عليهم ولم يقدروها قدرها ويحتفظوا عليها بحقها.

ولهذا قال تعالى (فما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) أي حيث أن آل داود لم يستديموا على شكر ربهم ولم يحافظوا على ملكهم قضينا عليهم بالذل والاضمحلال وعلى ملكهم بالذهاب والزوال.

فالمراد من موت سليمان القضاء على ملكه وملك آل داود الذي كان هو العصر الذهبي لبني إسرائيل فالمراد من الموت هنا الموت المعنوي لا الموت الجسماني لأن الموت الجسماني لكونه أمرا طبيعيا لا مفر لأحد منه فهو معلوم لا حاجة للكتب السماوية أن تبحث عنه وتعنيه دائما في كل آية من آياتها بل له مواضع مخصوصة يفهم منها ليس هذا الموضع منها لأن عدم شكر آل داود إنما يستوجب زوال ملكهم وموتهم معنويا لا موت جسم ملكهم وشخص سلطانهم موتا طبيعيا. فالموت يفسر في كل موضوع بحسب ما يفهم من سياقه، أي فلما أراد الله القضاء على ملك سليمان الذي هو ملك آل داود لعدم شكرهم وقضى بموته واضمحلاله ما دلهم على موته إلا دابة الأرض أي ما تسبب في إماتته وما دل الناس عليها إلا دابة الأرض فهي التي دلتهم عليها بتسببها في ذلك.

والمراد من دابة الأرض هنا هو بعض ما يدب عليها من الناس وهو أحد الجبابرة الشريرين المفسدين ممن تسبب في ضياع ملكه كما هو صريح قوله تعالى في سورة النمل (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) أي إذا استحقوا العذاب أخرجنا لهم رجلا شديدا جبارا يعاقبهم على أفعالهم ويكلمهم بلسان حالة بأنهم ما كانوا يوقنون بآيات الله ولذلك سلطه الله عليهم. فكل ما يدب على وجه الأرض يسمى دابة وإنما نسب هذا إلى الأرض لأنه مادي شرير سافل أرضي. وهذا الرجل المفسد الجبار الذي بواسطته زال ملك سليمان هو الجسد الذي ألقى على كرسيه الوارد في قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) أي جعلناه على كرسي ملكه مدة من الزمن ثم أناب سليمان على الله فأرجعنا ملكه إليه كما هو موضح في أسفار التوراة. وإنما سمي جسدا لأنه كان ماديا صرفا ليس فيه روح الحكمة كما في سليمان. وبالجملة فإن هذا الجسد الذي هو دابة الأرض قد كان سببا في إماتة سليمان موتا معنويا أي سببا في إزالة ملكه بأكل منسأته.

والمنسأة في اللغة –هي العصا التي تسلق بها الإبل والمراد منها هنا قوة سليمان الحسية والمعنوية التي كان يسوق الناس بها لطاعته وخدمة مملكته فهذا الجسد الجبار دابة الأرض هو الذي قد تغلب على هذه القوة وأكل هذه المنسأة. فأكل منسأته تفسير لمعنى موته أي ما تسبب في موته إلا دابة الأرض حيث أكل منسأته أي تغلب على قوته فلذلك قال تعالى (فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) أي فلما خر واضمحل ملكه تبين للجن الذين كانوا يتحملون أنواع المشقة في خدمته ويذوقون ألوان الشقاء بمخالفته وعذاب السعير من زيغهم عن أمره وظهر لهم أنهم لو كانوا يعلمون الغيب من أن ملكه سيضمحل هذا العلم الذي كان غائبا من أفكارهم وبعيدا عن تصوراتهم لعظم مملكته وقوة سلطانه لو يعلمون ذلك ما لبثوا في العذاب المهين ولا أقاموا في عذاب السعير بل كانوا قد أعانوا من سعى في اضمحلال ملكه وساعدوا من تسبب في موته ليتخلصوا من حكمه وعذابه. فليس المراد من الضمائر الراجعة لسليمان في هذه الآيات خصوص شخصه مجردا عن الصفة بل المراد منها من قام به ملك آل داود الذي كان يحمله سليمان في ذلك الوقت. فالمراد من موته فناء ملكه القائم بشخصه وضياع سلطانه المتحقق بموته موتا معنويا لا حقيقيا ولذلك قال تعالى في سورة (ص) (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب) فإنابته بعد ذلك إلى الله تعالى وطلبه منه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده دليل واضح على أنه لم يمت بجسمه بل كان موته بهذه الحادثة معنويا لا حقيقيا كما بيناه.

فهمان آخران لنا

في معنى قوله تعالى

"فما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته"

الفهم إن سليمان عليه السلام كان قد حنط جسمه كما تحنط أجسام العظماء من ملوك الفراعنة وغيرهم ولكنه لم يقبل في الأرض بل بقي في محله محنطا متوكئا على منسأته أي عصاه ثم جاءت دابة الأرض أي الأرضة فأكلت منسأته، وعندها خر جسمه على الأرض. وعليه فيكون معنى قوله تعالى (فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) أي أن الجن أي العمال الذين كان يستخدمهم سليمان في الأمور الدقيقة الخفية المستعصية على غيرهم والتي كانوا يتحملون في عملها أنواع المشقات والمتاعب والعذاب المهين بسبب أن سليمان كان يضطرهم إلى عملها وقد يهينهم إذا توانوا أو تهاونوا فيها، هؤلاء العمال الذين أخفى أرباب السلطة موت سليمان عنهم لما علموا بموته قالوا لو كنا نعلم ذلك من قبل لما لبثنا في هذا العمل الشاق وفي هذا العذاب المهين.

الفهم الثاني: أن سليمان كان (قد صنع له تمثال مجسم متوكئ على منسأته أي عصاه كما يصنع الآن تماثيل مجسمة للملوك والعظماء والزعماء. وقد يشير إلى ذلك قوله تعالى قبيل هذه الآية (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل إلخ..) وحينئذ فلا مانع أن يكون تمثال سليمان بالكيفية التي ذكرناها هي من جملة التماثيل التي كانوا قد عملوها. ثم أن دابة الأرض أي الأرضة أكلت منسأة تمثال سليمان فخر هذا التمثال على الأرض، فما خر تبينت الجن أنعملهم لهذا التمثال الذي لبثوا في عذاب صنعه

وإتقانه مدة طويلة قد ذهبت أتعابهم فيه سدى، ولو أنهم علموا الغيب من خروره في مدة وجيزة وتكسره بسرعة ما لبثوا في عذاب صنعه المهين أي الذي كان يضطرهم سليمان إليه ويجبرهم على إتمام عملهم فيه.

وكان خرور تمثال سليمان على الأرض وسقوطه وتكسره بسبب إخلال في صنعه وعدم تقويته بحيث يقاوم الأعاصير ونحوها هو نهاية لذكراه عندهم وموت أدبي له.

وهذان التفسيران وإن كانا حسنين غلا أن تفسيرنا الأول أحسن منهما.